

## الاشتغال التراثي في مسرحية (غنائية أولاد عامر) الجماليات والدلالات

أ. نعيمة العقريب

جامعة مولود معمري-تيزي وزو

يعد المبدع الجزائري عز الدين جلاوجي من بين المبدعين الذين حاولوا أن يجربوا عدة أجناس أدبية مما أعطى تنوعا وغنى لأعماله ووسم تجربته بطابع خاص، وبالتالي جعل منها تجربة مهمة بالنسبة للإبداع الجزائري في الفترة الأخيرة تستحق الالتفات والدراسة والبحث.

وقد وقع اختيارنا على نص مسرحي من بين مؤلفات عز الدين جلاوجي ألا وهو "غنائية أولاد عامر"<sup>1</sup>، ولعمري إنه لأمر جميل ومهم بالنسبة للإبداع الجزائري أن نجد بعض المبدعين الشباب يهتمون وينتجون في جنس المسرحية الذي لا يزال يعاني كثيرا في الجزائر والوطن العربي بصفة عامة لأننا لا نجد الكثير من المبدعين في هذا الجنس بالمقارنة بجنس الرواية مثلا الذي اكتسح المجال ودور النشر.

وقد ارتحت فعلا وأنا ألاحظ أن مسرحية (غنائية أولاد عامر) تعد الرقم التاسع في هذه السلسلة التي يخصصها الناشر لمسرحيات المؤلف جلاوجي، وهو رقم نجده مهما، ونظن أن الخلفية المعرفية والنقدية التي يمتلكها عز الدين جلاوجي عن أبي الفنون أدت دورا مهما في هذا التوجه فقد أنجز جلاوجي دراسات عن المسرح الجزائري والعربي عموما، ويقول عز الدين جلاوجي في إحدى حواراته: «وأول ما أنجزت نقدا هو كتابي "النص المسرحي في الأدب الجزائري" وهو عمل عرض للنص المسرحي في نشأته وتطوره وتيماتهِ وجوانبه الفنية، وكان دافعي الأساس هو غيرتي على هذا النص الذي لم يجد اهتماما من النقد الذي أولى فنون الأدب الأخرى أهمية كبرى»<sup>2</sup>.

ونظن أن عزوف المبدعين عن اقتحام مجال المسرح يرجع لارتباطه أساسا بالتمثيل والركح، ونحن كجزائريين ليس لدينا تقاليد في ارتياد المسارح ومشاهدة المسرحيات كما أن الفضاءات المسرحية المتوفرة غير كافية ولا تلقى العناية والتشجيع فالمسرح فن جميل يجب أن يبدأ بتلقين أجياله في المراحل

التعليمية الأولى. ثم إن المغريات الأخرى زاحمت المسرح ورمت به جانبا كالتلفزيون والأنترنت... الخ.

### التوصيف الشكلي للمسرحية:

لقد صدرت مسرحية (غنائية أولاد عامر) عن دار الروائع للنشر والتوزيع سنة 2010 في كتيب من الحجم الصغير ويبلغ عدد صفحاته الثمانون، والطبعة المعتمدة للدراسة هي الطبعة الثالثة.

من خلال اطلاعنا المبدئي على الغلاف الخارجي للمسرحية استرعى انتباهنا مجموعة من الإشارات التي تمنحنا بعض الإضاءات عن النص على اعتبار أن عتبات النص الأدبي جزء مهم من الدراسة الدلالية لهاته الأعمال فلا بد من استنطاقها قبل الولوج إلى عوالم النص الداخلية، وهو الأمر الذي أدركه كل من المبدعين ودور النشر فلم يعد الغلاف أمرا هامشيا بل جزءا من العمل يمنحه الجاذبية والاهتمام.<sup>3</sup>

إن المسرحية تحمل الرقم 9 من ضمن مسرحيات عز الدين جلاوجي التي صدرت في هذه السلسلة التي تحمل عنوان: مسرحيات عز الدين جلاوجي، وتتوسط غلاف الكتاب لوحة تجسد سلما للنوتات أو النغمات الموسيقية وتحت اللوحة إشهار لدار النشر ويبدو فوق اللوحة العنوان بارزا ببنط أبيض عريض، وقد جاء العنوان واللوحة في خلفية زرقاء متدرجة.

### العنوان/ النص:

إنّ أهم ما يجذبنا في النص هو العنوان لأننا من خلاله نستطيع أن نفترق من مضامين النص ونتمسك حركة معانيه، فالعنوان تكثيف للنص ييوح أكثر مما يقول ويوحى أكثر مما يكشف لأنه اختزال مكثف للنص بصورة مباشرة أو مجازية فكلنا «يعرف أن للعنوان وظيفة انتظارية أو إخبارية تدلنا بشيء من العموميات عن الداخل وعن المحتوى أو التوجه الذي سار عليه الكاتب فهو يلخص العمل بطريقة أو أخرى»<sup>4</sup>.

يتكون عنوان المسرحية من ثلاث كلمات (غنائية أولاد عامر)، والغنائية مشتقة من الغناء المرتبط بالتعبير عن الخوارج والذاتية، وكذلك الشعر الغنائي المرتبط بالوجدان والعاطفة لدى الذات الشاعرة كما يرتبط باللمحة باعتبارها جنسا يتغنى بالقومية.

النص إذن غنائية منسوبة إلى فئة معينة هي أولاد عامر باعتبارهم منتجوا هذه الغنائية للتعبير عن هويتهم وتميزهم وتمجيد مآثرهم وبطولاتهم وتاريخهم. وكذلك ترتبط الغنائية بالفعل والحركة والرقص الذي يوحى إلى حركية البطل العامل في المسرحية في التحرك والمغامرة والصراع الذي سيخوضه ضد الأعداء.

والغنائية مرتبطة أيضا بفن الشعر على أساس أن الغناء مرتبط بالألحان والموسيقى والإيقاع. وهذا ما تعكسه لوحة الغلاف التي تجسد سلما موسيقيا بنغماته المتنوعة، أما أولاد عامر فهم امتداد للجد عامر وتواصل في تجسيد الأصالة والقيم التي يدافع عنها ويتغنى بها وهو الأمر الذي يعبر عنه الراوي في المسرحية: "

كي نوار العطيل

كي خضرة القصيل

كي لحمام اللي ارفرف ويميل

انزرع عامر وأولادو لحرار

مئات وألاف كثار

وعمرودا الأرض بعرقهم الجاري

وابدمهم احمر قاني"<sup>5</sup>

فقيم النخوة والشهامة والتضحية والثبات عند الشدائد ونشدان الحرية يتم توارثها حفاظا على الشرف الرفيع الذي لن يسلم حتى يراق على جوانبه الدم على رأي المتنبي، ويواصل الراوي في المسرحية قائلا:

وعزة ردت كل طماع

ونيف ورجولة ماتتباع

حمات لبلاد في كل الأحوال

من سر عديا كي لغوال

وكتب التاريخ بماء الذهب

بطولة رجال مارضا والغصب

وعلامه مليونين فهامة

محاو الجهل واظلامه "

إذا هناك علاقة قوية رابطة بين الغنائية وأولاد عامر في نص المسرحية، وجاء العنوان مكرسا لتلك العلاقة التي أراها أن تبقى مستمرة:

وهاهم يحاضر

أولاد عامر لحرار

ما زالوا كي السبوعة في الميدان

يحميو عز سطيف زينة البلدان

وزغرتوا يا العمريات

زغرتوا يا زينة لبنات"

فأولاد عامر لحرار جدود السطايفية نموذج للإباء وفي الوقت نفسه قطعة من الوطن الكبير (الجزائر) الذي امتزج فيه الدم العربي الهلالي بالدم الأمازيغي الذي يتجسد في زواج عامر الهلالي بعلاجية حفيدة الكاهنة:

علاجية زينة الزين

حليلة لعامر..قولوا أمين...

.....

ليد في ليد

كبير ووليد

نقيم في سهولنا والبيد

حصون ماتزول ما تميد

وعروش رياتها فالسما ما تبيد

خليونا نقيموا لفراح"

إن السلم الموسيقي دعوة لعزف النغم ذاته والسير على الدرب نفسه بنفس الإباء والتضحية، وعدم الحيد عن هذا النغم مهما حدث حتى تأتي الأنعام منسجمة متوازنة والإيقاع شجيا عذبا لا يسوده نشاز أو خلل يفسد اللحن، إذن هي دعوة لعزف السمفونية المجيدة التي عزفها الأجداد والسير على الطريق نفسه بانطلاق وثقة وهو الأمر الذي نؤوله من الخلفية الزرقاء لواجهة الغلاف، فاللون الأزرق لون السماء يرمز للبحر والفضاء الممتد كما أنه رمز الهدوء والسكينة والخلود ويوحى بالثقة والأمان<sup>6</sup>.

إذن هناك توجه نحو الأفق والمستقبل تجسدها الفضاءات المفتوحة في المسرحية من صحراء وغابة...فهي فضاءات للحركة والانطلاق تخشى الانغلاق والتقوقع على نفسها.

وفي الصفحة 4 نجد معلومات إضافية منها البريد الإلكتروني للمؤلف ونوع النص حيث جنس النص على أنه مسرحية، وللمؤشر التجنيسي دور مهم لأنه يحدد جنس النص ضمن مجموعة من الأجناس الأخرى ويهيئ المتلقي

لأفق انتظار معين، لأن الجنس يوجه قراءة المتلقي وجهة معينة فتلقي الرواية ليس مثل تلقي الشعر... الخ  
وقد عت دار النشر أهمية التواصل بين القارئ والمبدع فهناك استثمار للوسائط الحديثة لزيادة التفاعل بين المبدع والمتلقي.  
ويواصل في الصفحة 6 إيراد بعض الملاحظات حيث يبدؤ أن المسرحية صيغت للتمثيل فهي عبارة عن سيناريو فيه مجموعة من التفاصيل منها:

- المقاطع الغنائية يجب أن تكون من التراث المحلي
- الاستعراضات الراقصة يجب أن تكون رقصات شعبية فردية وجماعية.

- الموسيقى يجب أن يكون أغلبها محليا تراثها

فالمسرح في الأساس هو كلمة وفعل معا لأنه أيضا تمثيل وإخراج وحركة وديكور ولوازم ركحية ولكن في البداية لابد أن يكون هناك نص مسرحي. ومسرحية (غنائية أولاد عامر) قد مثلت على ركح مسرح سطيف بتموين من دار الثقافة .

من خلال الملاحظات السابقة الذكر نلاحظ ربطا للمسرحية بالتراث سواء أكان غناء أم رقصا أم موسيقى، وفي هذا التراث إعادة تواصل مع الماضي وتوظيف للحظات المشرقة باعتباره جزءا منا ثم «إن حاضرا مهزوم وماضينا فيه الكثير من الانتصارات نلتجئ إليها كلما ضاقت بنا الدنيا وحاصرتنا الهزائم المتتالية»<sup>7</sup>  
فهذا التراث معين روحي وملجأ لتحقيق التوازن الشخصي والإحساس بالانسجام في عالم كثرت فيه الهزات والهزائم.

### استحضار التراث الشعبي:

سنحاول أن نستتكه النص المسرحي (غنائية أولاد عامر) وتركيز الضوء على الاشتغال التراثي والتاريخي في هذا النص وجماليات هندسة السرد الموظفة والتقنيات المستخدمة بالإضافة إلى خصوصية اللغة العامية الراقية التي أبدعت بها هذه المسرحية الغنائية.

يستحضر عز الدين جلاوجي أجواء التراث الشعبي حيث يستلهم من السير الشعبية وخاصة الهلالية منها الشخصيات وكارزمياتها والبطولات فيحاول أن يؤسس لإبداعه انطلاقا من تراثنا وقيمنا الجمالية ليبرز الأبعاد السياسية والرمزية والتاريخية .

في المسرحية اشتغال ورؤية جديدة فيها وعي بالتراث مما وسم النص بغنى ودلالات مما يستلزم على القارئ أن يتسلح بزاد معرفي وثقافي يسعفه في فك الرموز لأن للخلفيات دور بارز في إنتاجية النص، وللقارئ دور مهم في إنتاج المعنى.

يدخل جلوجي في تفاعل وتجاوز مع السيرة الهلالية حيث تبرز شخوص السيرة في المسرحية (الجازية، خليفة، الشيخ غانم) باعتبارها نماذج بشرية استثمرت لنقل وجهة نظر المبدع، فالسيرة الهلالية غنائية بني هلال تحكي بطولاتهم وإنجازاتهم أما تغريبهم فتجسد تزواجهم واختلاطهم بالأمازيغ في المغرب العربي وانصهارهم معا في بوتقة واحدة.

تظهر شخصية الجازية في المسرحية محملة بإرث تراثي يمثل الجمال والشجاعة والحكمة، وكم تعلقنا في تراثنا بهذه الشخصية باعتبارها رمزا للجمال والتحرر وكم تماهينا مع أبي زيد الهلالي وخليفة الزناتي كل يدافع عن قومه ومبادئه، أبو زيد رمز القوة والشباب والرغبة في تحقيق الأفضل أما خليفة الزناتي فرغم تقدم السن يدافع عن الحمى والأرض في وجه الدخيل حتى وإن كان ابن عم جاء مغتصبا<sup>8</sup>.

وهي القيم ذاتها التي يجسدها عامر في المسرحية حامي الحمى الذي ينشد الخير والفضيلة والحب ويقف مع قومه في كل الأوقات الصعبة كما نجد في المسرحية تلميحا لقيم الإباء والنخوة التي لا ثمن لها لأنها هي التي تمنح الخلود والتواصل والتجدد لأبناء الوطن وترسم طريق المستقبل والأمل أمامهم. وحتى بالنسبة لفضاء المسرحية فقد أحوالنا إلى فضاء الصحراء الواسع إلى أجدادنا البدو الرحل في حلهم وترحالهم المتواصل.

تمتد المسرحية في ثمانية مشاهد استعمل فيها لغة عامية حاول من خلالها أن يعود إلى المنابع التاريخية الشعبية وإبراز عناصر قوتها، فاستثمر اللغة الشعبية وحاول محاورة التراث باعتباره رافدا مهما من روافد ثقافتنا ومكون أساسي من مكونات هويتنا التي لا تنحصر فقط في الثقافة العالمية، فالنص الشعبي يختزن أحلام الشعب وجروحه وآماله وفي الوقت نفسه إبراز للواقع المحلي بعباداته وتقاليده.

**العجائبي والأسطوري:** مع افتتاحية المشهد الأول من المسرحية نلاحظ بروز لغة الحلم والأسطورة المحملة بالدلالات والرموز حيث يتشكل الواقع

تشكلا أسطوريا، وتلمس هذا الخيال مع بداية المسرحية حيث يقول جلاوجي على لسان الراوي:

واختالفت لقوال ...

بين عالم وجهال

بين اصحيح ومعلال

قالوا من الشمس جاو وبانوا

كي نجوم السما لمعوا وضواو

قالوا قطعوا صحرا قاسية بناها تكواو

قالوا من ساقية حمرا ساروا وعلاو

حيث أضى الراوي طابعا خياليا يرتبط بالأسطورة على هؤلاء القوم

الذين ارتبط ظهورهم بالشمس والنجوم والصحراء والماء.

يوظف جلاوجي شخصية الراوي القوال أو المداح الشعبي الذي ينتشر

في الأسواق والساحات يقص المغازي والحكايات وينشد القصائد الشعرية

فيتحلق الناس من حوله لأنهم يستميلهم بلغته الشعرية الجميلة الزاخرة بالأوزان

والأسجاع والأمثال حيث ينقل المستمعين من عالم الواقع إلى عالم خيالي

سحري عجيب :

هم رجال ابطال

بقوالهم وبلفعال

صلوا على خير العالمين

وهاكم قصتهم ياسامعين

قصة غريبة تسمعوها في ذا الليل

استثمر المبدع طقوس رواية الحكايات العجيبة التي لا تروى إلا ليلا لأن

هناك أسطورة في تراثنا الشعبي تقول بأن من يروي الحكايات في النهار

يصاب بالقرع .

ومن الخوارق أيضا الإشارات الواردة لميلاد البطل الذي لم يكن حدثا

عاديا بل ارتبط بمجموعة من الخوارق والبطل هنا هو القبيلة كلها وتجسد هذه

البطولة الجماعية في نص المسرحية على لسان الشيخ غانم:

كلنا عامر ياغلطان

تاريخنا مالحقوا نسيان

انتصاراتنا ظاهرة للعيان

ترويهما الحكما والصبيان  
من يوم اخرجنا من عش الامان  
وغامرنا في هذا البلدان  
صحرة العرب شاهدة علينا بالدليل  
وأرض الشام ومياه النيل  
وبلاد المغرب العربي الكبير  
الموت ولا حياة العار  
الموت ولا حياة العار

تتدخل شخصية القوال أو الحكواتي الشعبي لتوجيه السرد الذي يستبق  
أحيانا الأحداث فيه ويطعمه أحيانا بجملة من الحكم والأمثال الشعبية وخاصة  
رباعيات المجذوب التي تبدو واضحة للعيان مثلا يقول على لسان الشيخ غانم:

إيه ياالذنيا الغدارة  
كسرتيني من ذراعي  
ذليت من كان بوه صياد  
وظلّعت من كان بوه راعي  
أو في الصفحة 14 من نص المسرحية:  
سور الرمل ما يعلى ساسو  
لغريب لايد يرجع لناسو

ولا ننسى أن جلاوجي سبق له وأن نشر كتابا عن الأمثال الشعبية  
الجزائرية فهو متشبع بهذه الثقافة الشعبية الغنية بجميع أشكالها المادية  
واللامادية ولهذا نجده يوظف الغناء والموسيقى والرقص في المسرح بالإضافة  
إلى الشعر لأن المسرح احتفال وفرجة وليس حوارا فقط حيث حاول المزج بين  
عدة عناصر وأجناس كما كسر المقاييس المعيارية المرتبطة بالسياق الثقافي  
فوظف اللغة العامية في هذه المسرحية لأنها لغة تبداع واقعها وتخلق عالمها  
فأخرجها بذلك من الابتذال ليجعل منها وسيلة إبداعية جمالية انفتحت على  
الواقع الشعبي وثقافته وقيمه المنغرسه من أجيال وأجيال، فحققت هذه اللغة في  
النهاية اللذة والمتعة للقارئ.

نقول في الأخير إن سحر المسرح وجمالياته تكمن في كونه يتجسد في  
كائنات وأصوات وممثلين ولا يقتصر على كونه نصا فقط، وهذا السحر يعطيه

قدرة على الإبداع والتجدد، وقد ارتبط المسرح كثيرا بمختلف أنواعه وتحول هذا التراث مع المبدعين إلى طاقة خلّاقة تبعث الوحي والإلهام والحيوية. فالمسرح اليوناني ولد من التراث مع عمالقته (سوفكليس واسخيلوس ويوريبيديس). وهكذا فإن التراث الشعبي يبقى منطلقا مهما للإبداع ولأيد من إعادة الاعتبار له وحمايته من التشويه والتهميش مقابل العناية الفائقة بتراث السلطة الممسكة بزمام السياسة والثقافة.

## الهوامش

- 1- عز الدين جلاوجي، غنائية أولاد عامر، دار الروائع للنشر والتوزيع، ط3، الجزائر 2010.
- 2- حوار مع الكاتب الجزائري عز الدين جلاوجي أعدته: هيام الفرشيشي في مجلة أدب وفن ([www.adabfan.com](http://www.adabfan.com)) يوم 14 / 03 / 2012، على الساعة 40: 18.
- 3- أولى الكثير من الدارسين الغربيين الاهتمام بمحيط النص منهم الناقد الفرنسي جيرار جينات في كتابيه عتبات والتطريس.
- G.Genette , Seuil ; Seuil, Paris1987
- G.Genette ; Palimpsestes ; Seuil, Paris1982.
- 4- محمد عبّازة، مقاربات للمسرح التراثي، دار سحر للنشر، تونس 1999 ، ص39.
- 5- غنائية أولاد عامر، ص75.
- 6- [www.alsaher.net](http://www.alsaher.net) / 20-05-2012 الساعة: 30: 15
- 7- محمد عبّازة، مقاربات للمسرح التراثي، ص18.
- 8- محمد عبّازة، المرجع نفسه، ص 20.